الثنائية فى الميزان

القائلون بنظرية « الثنائية » منطقيون ، ولم يبدأوا من فراغ ، ولم يكونوا أسارى الوهم والخداع ، كما لم يدفعهم التحرض والجراة على قول ما قالوا ، وما أثير فى وجههم من اعتراضات لم تثبت عند التنفيذ :

● فقد استنتج (جورجى زيدان) : أن لغتنا مؤلفة أصلا من أصول محصورة عدا ، أحادية المقطع ، معظمها مأخوذ عن محاكاة الأصوات الخارجية ، وبعضها عن الأصوات الطبيعية التى ينطق بها اللسان غرزيا . وبنى استنتاجه على مرتكزين يؤيدهما الواقع ، وتسندهما الشواهد ويخدمان قضية الثنائية ، وهما — كما أسلفنا —

أن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى غيرها — ويقصد بها الأدوات — انما هى بقايا ألفاظ ذات معنى فى نفسها .

وأن الألفاظ المانعة الدالة على معنى فى نفسها يرد معظمها بالاستقراء الى أصول ثنائية تحاكى أصواتا طبيعية ، وتضم الأسماء والأفعال وما يشتق منها .

وحين قرر ذلك جورجى زيدان ، لاحظ أن الألفاظ المتحدة تتقارب لفظا عند اشتراكها فى حرفين ، هما : حامل المعنى الأصلى ، ثم يأتى الحرف الثالث — على الجذور الثنائية التى هى حوامل المعانى — لتنويع المادة اللغوية ، وتطوير الاستعمال الدلالى فقط ، عن طريق الاشتقاق الكبير ، والأكبر ، والكبار (النحت) .

وهو بتقريره ليس بدعا بين اللغويين ، فقد أشار الى ذلك : الخليل ابن أحمد ، وسيبويه ، والفارسى ، وابن جنى ، وابن فارس ..

ووصف بعضهم هذا الاتجاه بالمغالاة ، وأحلام اليقظة والتخيلات . يقول الدكتور أنيس : « لقد غالى ابن جنى فى هذا ، ومعه الثعالبى صاحب (فقه اللغة) : اذ جعلا مجرد الاشتراك فى أصلين فقط من الأصول الثلاثية دليلا على الاشتراك فى عام لبعض الكلمات ، فيقرر : أن المعنى العام (للتفرقة) يكون بصوتى (الفاء والراء) ، والمعنى العام (للقطع) يكون (بالقاف والطاء)

الى غير ذلك من تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة ، عند رجل ، اشتد ولعه واعجابه باللغة العربية ، فيتصور فيها ما ليس منها ، واضفى عليها من مظاهر السحر ما لا يصح فى الأذهان ولا تتصف به لغات من لغـــات البشر » (١) .

وفى قول الدكتور أنيس الغاء سريع للمسألة برمتها ، واهمال لمـــا قرره الأقدمون فى هذا الصدد ، وما حوته بطون المعاجم وقبله العقـــل وأيده الاستعمال ، والتذوق الراقى .

ومن يطلع على البحث التطبيقى عن : (ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية وعلاقتها بالأصول الثلاثية) ، ويتابع ما بداه بتأن وروية ، يجد صـــدق وثبات وصحة ما قرره السلف من علمائنا .

والشيخ العلايلى يمتدح جورجى زيدان بأنه : تنبه الى أن الثلاثى متفرع عن ثنائى سابق لا فى الاشتقاق فقط ، كما فهمه الأقدمون حين ذهبوا يطبقونه فى الأبدال وتعاقب الحروف ، بل فى النشوء اللغوى أيضا .

ويضيف الشيخ العلايلى : بأننا اذا حاولنا انصافا ، فلم تكن أفكاره فى فحواها بأكثر من أفكار كتاب « العين » التى بثها الخليل بن أحمد ، وأرسلها ارسالا (٢) .

ولذا يدعونا الدكتور عبد الصبور شاهين ، الى أن نحسن تتبع آراء الأقدمين فى مظانها ، وأن نستقصى بصورة كاملة مذاهبهم ، ليتم تحقيق التكامل بين آرائنا وآراء الأقدمين . (٣) وهى دعوة حرية بالمسارعة بالقبول ، لخدمة لغة الضاد .

* * *

● ويتفق أصل الوضع اللغوى عند العلماء القائلين بالثنائية ، مـــع الواقع والطبيعة فى تدرج الأشياء :

---

(١) من أسرار اللغة ، ص ٦٧

(٢) مقدمة العلايلى ص ١٣٦ .

(٣) فى التطور اللغوى ص ٩٠ .

فقد نطق الانسان أولا مقاطع واحدة ، أو (هجاء واحدا) — كما يرى الأب انستاس الكرملى — أى بناء مكونا من صامت ومصوت (سواء أكان المصوت فتحة أم كسرة أم ضمة) وربما اتبعه بصامت ، فتتكون الصورة المقطعية ، وهى بذلك فى اجمالها اشارة الى مصطلح الهجاء الواحد ، وتلك نظرة تساير الواقع ، ولا تختلف نظرة الأب مرمرجى عن هذه النظرية الا بمصطلح شكلى ، هو الثنائية ، لأن الكلمات بين يديه تتكون من رمزين مكتوبين ، بصرف النظر عما بها من مصوتات هى فى الحقيقة عناصر صوتية أساسية .

ورأينا كيف جعل الشيخ العلايلى أدوار اللغة متدرجة شبه طبيعية تترقى فى أدوارها بترقى الانسان ومتطلبات حاجياته . فسلك الانسان لذلك سلوك « الاحادية » ، ثم « الثنائية » فى اختراع اللغة ، ثم كان اكتنازها بعدئذ لتكون أكثر خصوبة وأسخى عطاء ، فتتمكن من العطاء الواسع ، والوفاء بما تتطلبه الحياة والأحياء .

فكان الدور الأول ، للمقطع الأحادى البسيط للانسان البدائى .

والثانى للمقطعين ، حين ترقى الانسان بعض الشىء ، فحاكى أصواته الطبيعة .

وكان الدور الثالث للجمع بين الدورين السابقين ، فألف منهما دلالة مركبة ، تفى بتغطية متطلباته والمداليل الاجتماعية التى تدرجت فى خمس حلقات طالت حتى بلغ الانسان رقيه ، والحضارة ذروتها .

وذلك لأن : « طريقة الاشتقاق والتوسع فى السامیات قائمة على الارتقاء من الأقل والأنقص الى الأكثر والاكمل ، أى حسب السنة الطبيعية : سنة الرقى ، وليس بالعكس الا من باب الاختزال وهو نادر ، ولا يحدث فى طور التكوين والنشوء ، بل فى عصر الكهولة والهرم ... والعلاقة الأساسية الثابت — غالبا — وجودها بين المشتق والمشتق منه هى اللحمة المعنوية ، مع توسع الدلالة وتطورها : بالانتقال من حيز المعانى المادية الحسية ، الى حيز المداليل المجردة والمجازية ، ثم العقلية والروحية » .

هذا بعض ما قاله الأب مرمرجى تأييدا لسنة الترقى الطبيعية فى اللغة ، شأن أى شىء يتدرج ولا بأس به من طريق — معقول — لتوسع اللغة ، وتكثير مفرداتها ، لتغطية الأحداث والمتطلبات حقيقة وعقلا وخيالا وكمالا وجمالا .

* * *

والأب مرمرجى يؤكد ، ويصر — فى موضوعية وخبرة — على أن الزيادة — التى تمت بها التوسعات — لم تكن اعتباطا ولا عشوائية ، : « دون ضبط الحرف المطلوب ، ودون تخصيص الدور القائم به فى ميدان الزيادة » ، وبملاحظة : أنه « فى طور التكون اللغوى تبدأ الزيادة بالحروف عن طريق السماع دون القياس ، فتنشأ بضرب من الفوضى ، ثم تسير رويدا رويدا فى سبيل التكامل والاستقرار ، فمنها ما يبلغ درجة القاعدة والقياس المطلق أو النسبى ، ومنها ما يتخلف فيبقى دون نظام ... وقد تجرى هذه الزيادة بالحروف ، بعض الأحيان لمقاصد تلوح متضاربة ، لا بل متضادة : » كياء المضارعة التى تستعمل « للغائب ، والمثنى ، وللجمع : المذكر والمؤنث ... والتاء التى تدل على المخاطب المذكر والمؤنث ، وعلى المثنى والجمع المذكر والمؤنث » .

وهذا ما ذكره الأب مرمرجى ردا على اعتراض (J.A.D,M.) فى مجلة (Arientlia) الصادرة فى رومة (١) بأن الزيادة التى تذكر تتويجا أو اقحاما أو تذليلا — انما هى اعتباطية وغير منضبطة .

وهذا الرد منطقى يتمشى مع طبيعة اللغة واقعا ، وتاريخا محفوظا يؤيده السماع والقياس والاستعمال ، وبخاصة فى فترة التدرج وعدم الاستقرار اللغوى التام .

يقول الشيخ العلايلى :

ان العطاء الواسع والاحكام اللغوى ، انما حصل حين صار الثلاثى وحدة الكلمة ، فتوسع بالاشتقاق والتصريف ، أما حين كانت الاضافة للبناء ، كانت الاضافة للثنائى ، وعلى ذلك :

فقد كانت الزيادة للبناء ، وهى ما تضاف للثنائى ، لصوغ الثلاثى ، وموضعها الوسط .

وحين كانت للاشتقاق ، وتضاف الى الثلاثى لتحصيل الرباعى وغيره ، وموضعها الآخر .

وحين كانت للتصريف ، كتفعل واستفعل ... كان موضعها الأول غالبا .

وواقع اللغة يثبت ما قاله الشيخ العلايلى فى البناء والاشتقاق والزيادة ، والعربى يملك لغته وهى شغله الشاغل ، تترقى معه ، وينميها حين تضطره الحاجة بوعى وسهولة ، والحاجة أم الاختراع والتطوير .

* * *

---

(١) جزءا ، مجلد ١٩ ص ٢٠٧